لا مُجَابهة ومُجَاهرة ؛ ولا كَيْداً وتبييتاً ؛ حتى ولو استعنتُم بالجنّ ؛ فالإنسان قد يمكر ويواجه ، وحين يفشل قد يحاول الاستعانة بقوة من جنس آخر له سلطان كسلطان الجن ، وحتى ذلك لم يفلح معه ﷺ ؛ فقد حاولوا بالسحر ؛ فكشف الله له بالرؤيا موقع وَضْع السحر[1] .

وذهب بعض من صحابته ليستخرجوا السِّحر من الموقع الذى حدده رسول الله لهم .

وهكذا أوضح لهم الحق سبحانه أن كل ما يفعلونه لن يَحِيق برسوله ﷺ ؛ فسبحانه :

﴿ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ .. (٢١) ﴾ [يوسف]

وهكذا كان الحق سبحانه وما زال وسيظل إلى أنْ يرث الأرضَ ومَنْ عليها ، وهو شديد المحال .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ (١٤) ﴾

وسبحانه قد دعانا إلى أنْ نؤمن بإله واحد وهى دعوة حق ،

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : « سُحر النبى ﷺ حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله ، حتى كان ذات يوم دعا ودعا ثم قال : أشعرت أن الله أفتانى فيما فيه شفائى ؟ أتانى رجلان فقعد أحدهما عند رأسى والآخر عند رجلىّ ، فقال أحدهما للآخر : ما وجع الرجل ؟ فقال : مطبوب (أى : مسحور) قال : ومن طَبَّه ؟ قال : لبيد بن الأعصم . قال : فيما ذا ؟ قال : فى مشط ومشاقة وجُفّ طَلْعة ذكر . قال : فأين هو ؟ قال : فى بئر ذروان » أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٢٦٨) .

والذين من دونه يدعون لإله غير حق . والضمير هنا قد يعود إلى الله ؛ فكأن الله قد دعا خَلْقه إلى كلمة الحق وهى « لا إله إلا الله » ، وهو سبحانه قد شهد بأنه لا إله إلا هو ؛ وشهدتْ الملائكة شهادةَ المشْهد ، وشَهد بها أولو العلم شهادة الاستدلال[1] ؛ تلك هى دعوة الحق .

أو « له » أى : للإنسان الذى يدعو إلى الحق ، وحين يدعو الإنسان فهذا يدلُّ على أن أمراً قد خرج عن نطاق أسبابه ؛ لذلك يدعو مَنْ يعينه على هذا الأمر .

والدعاء لَوْنٌ من الطلب ، إلا أن الطلب يختلف باختلاف الطالب والمطلوب منه ؛ فإنْ كان الطالبُ أدنى من المطلوب منه لا يُقال له فعل أمر ؛ كقولك « اغفر لى يا رب» وهذا لا يقال له فعل أمر ؛ بل يقال له دعاء.

وهكذا نرى أنه إن كان فعل الأمر من الأدنى للأعلى ؛ لا نسميه فعْل أمر بل نسميه دعاءً ، والطالب الذكىّ هو مَنْ يلحظ أثناء الإعراب إنْ كان المطلوب هو من الأدْنى إلى الأعلى ؛ فهو لا يقول « فعْل أمر » بل يقول « فعل دعاء » مثل قول العبد لله : يا رب اغفر لَى ، وإنْ كان المطلوب من مُساوٍ ؛ فهو يقول « التماس » . وإنْ كان المطلوب قد صدر من الأعلى للأدنى فهو « فعل أمر » .

وحين يدعو الإنسان ربه ؛ فهذا يعنى أن أسبابَ العبد قد نفدتْ ؛ وهو يلجأ إلى مَنْ يعلو الكون ويملك كل الأسباب ، ولذلك فكُلٌّ منَّا يدعو الله ؛ لأنه سبحانه القادر على إنفاذ مطلوب العباد ؛ ولا يُعْجِزه شَىء .

ولكنْ إنْ دعوتَ مَنْ لا يستطيع ؛ فهذه دعوةٌ لا تنفع العبد ، وهم

---

(١) قال تعالى : ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران] .

كانوا يدعُونَ الأصنام ؛ والأصنام لا تضرُّ ولا تنفع ؛ فالصنم مِنْ هؤلاء لا يقدر على نفسه أو لنفسه ؛ فقد كان من الحجر .

وبطبيعة الحال فالدعاء لمثل تلك الأصنام لا تحقق شيئاً ؛ لأنها لا تقدر على أيِّ شيء .

وهكذا يتأكد لنا أن دعوة الحقِّ هي أنْ تدعوَ القادر ؛ أما الذين يدعون المعبودات الباطلة فإنها تخيب من يدعوها في مقصده ، ولذلك يقول الحق سبحانه هنا :

﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ .. (١٤) ﴾ [الرعد]

لأنهم لا يملكون شيئاً فالصنم من هؤلاء لا يسمع فكيف يستجيب؟

ثم يضرب الحق سبحانه المَثَل بشيء مُحَسٍّ ؛ نفعله كلنا ؛ فيقول :

﴿ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ .. (١٤) ﴾ [الرعد]

فالعطشان ما أنْ يرى ماءً حتى يَمُدَّ يده إليه ليغترف منه ؛ لكن يده لا تصل إلى الماء ؛ هذا هو حال مَنْ يدعو غير الله ؛ فقد سأل غير القادر على إنفاذ مطلبه ، وهكذا يكون دعاء غير الله ؛ وهو دعاء في ضلال وفي غير متاهة .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ[1] ۩ (١٥) ﴾

---

(١) الأصيل : الوقت حين تصفرُّ الشمس بعد العصر إلى المغرب ، وقد يراد به العشي . والجمع : أصُل . وجمع الجمع : آصال . قال تعالى : ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٤٢) ﴾ [الأحزاب] . وقال تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (٣٦) ﴾ [النور] [القاموس القويم ٢١/١] .

والسجود كما نعرفه حركة من حركات الصلاة ، والصلاة هى وَقْفة العبد بين يدى ربه بعد ندائه له ، والصلاة أقوال وأفعال مُبْتدأة بالتكبير ومُخْتتمة بالسلام[1] ؛ بفرائض وسنن ومستحبات مخصوصة .

والسجود هو الحركة التى تُبرز كاملَ الخضوع لله ؛ فالسجود وَضْع لأعلى ما فى الإنسان فى مُسْتوى الأدنى وهو قَدَم الإنسان ؛ ونجد العامة وهُمْ يقولون : « لا ترفع رأسك علىَّ » أى : لا تتعالى علىَّ ، لأن رَفْع الرأس معناه التعالى ، وتخفيضها بالركوع أو السجود هو إظهارٌ للخضوع ، فإذا قال الله :

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ..(١٥) ﴾ [الرعد]

عليك أن تفهم أن هذا ما يحدث فعلاً ؛ وإنْ لم يتسع ذهْنك إلى فَهْم السجود كما يحدث منك ؛ فليتسع ظنُّك على أنه مُنْتهى الخضوع والذِّلة لله الآمر .

وأنت تعلم أن الكون كله مُسخَّر بأمر الله ولأمر الله ، والكون خاضع له سبحانه ؛ فإن استجاب الإنسان لأمر الله بالإيمان به فهذا خير . وإنْ لم يستجب الإنسان ـ مثلما يفعل الكافر ـ فعليه سُوء عمله .

ولو استقصيتَ المسألة بدقَّة الفَهْم ؛ لوجدتَ أن الكافر إنما يتمرد بإرادته المُسَيطرة على جوارحه ؛ لكن بقية أبعاضه مُسخَّرة ؛ وكلها تؤدى عملها بتسخير الله لها ، وكلها تُنفِّذ الأوامر الصادرة من الله لها ؛ وهكذا يكون الكافر مُتمرداً ببعضه ومُسخَّراً ببعضه الآخر ، فحين يُمرضه الله ؛ أيستطيع أنْ يعصى ؟

---

(١) عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « مفتاح الصلاة الطهور ، وتحريمها التكبير ، وتحليلها التسليم » أخرجه أحمد فى مسنده (١/١٢٣ ، ١٢٩) ، والدارمى فى سننه (١/١٧٥) والترمذى فى سننه (١/٨) وقال : « هذا الحديث أصح شىء فى هذا وأحسن » .

طبعاً لا . وحين يشاء الله أن يُوقف قلبه أيقدر أن يجعل قلبه يخالف مشيئة الله ؟ طبعاً لا .

إذن : فالذى يتعوّد على التمرد على الله فى العبادة ؛ وله دُرْبة على هذا التمرد ؛ عليه أن يُجرِّب التمرد على مرادات الله فيما لا اختيار له فيه ؛ وسيقابل العجز عن ذلك .

وعليه أنْ يعرف أنه لم يتمرد بالكفر إلا بما أوسع الله له من اختيار ؛ بدليل أن تسعة وتسعين بالمائة من قُدراته محكوم بالقهر ؛ وواحد بالمائة من قدراته متروك للاختيار ، وهكذا يتأكد التسخير .

وخضوع الكافر فى أغلب الأحيان ؛ وتمرّده فى البعض الآخر ؛ هو مُنْتهى العظمة لله ؛ فهو لا يجرؤ على التمرد بما أراده الله مُسخَّراً منه .

ولقائل أن يقول : ولماذا قال الله هنا :

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ..(١٥) ﴾ [الرعد]

ولم يقُلْ : « ما فى السماوات وما فى الأرض » ؟

وأقول : ما دام فى الأمر هنا سجود ؛ فهو دليل على قمّة العقل ؛ وسبحانه قد جعل السجود هنا دليلاً على أنّ كافة الكائنات تعقل حقيقة الألوهية ؛ وتعبد الحق سبحانه .

وهو هنا يقول :

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ..(١٥) ﴾[الرعد]

وهنا يُعلمنا الحق سبحانه أن كل الكائنات ترضخ لله سجوداً ؛ سواء المُسخَّر ؛ أو حتى أبعاض الكافر التى يستخدمها بإرادته فى الكفر بالله ؛ هذه الأبعاض تسجد لله .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (١٥) ﴾ [الرعد]

ونحن فى حياتنا اليومية نسمع مَنْ يقول : « فلان يَتْبع فلاناً كَظله » ؛ أى : لا يتأبَّى عليه أبداً مطلقاً ، ويلازمه كأنه الظل ؛ ونعلم أنَ ظلَّ الإنسان تابعٌ لحركته .

وهكذا نعلم أن الظِّلال نفسها خاضعة لله ؛ لأن أصحابها خاضعون لله ؛ فالظل يتبع حركتك ؛ وإياك أنْ تظنَّ أنه خاضع لك ؛ بل هو خاضع لله سبحانه .

وسبحانه هنا يُحدِّد تلك المسألة بالغُدوِّ والآصال ؛ و « الغدو » جمع « غداة » وهو أول النهار ، والآصال هو المسافة الزمنية بين العصر والمغرب .

وأنت حين تقيس ظلَّك فى الصباح ستجد الظِّل طويلاً ، وكلما اقتربت من الشمس طال الظل ، وكلما اقترب الزوال يقصُر الظلُّ إلى أنْ يتلاشى ؛ وأبرز ما يتمايل الظل بتمايل صاحبه هو فى الصبح وبعد العصر .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾﴾

و « قل » هى أمْر للرسول أنْ يقول للكافرين ، وهناك فى آيات أخرى يقول سبحانه :

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ[1] ﴿٨٧﴾﴾ [الزخرف]

---

(١) أفك يأفك : كذب وافترى باطلاً . والإفك : الكذب . وأفّاك : كثير الكذب صيغة مبالغة [القاموس القويم ١/٢٢] .

ولقائل أن يسأل : لماذا جاء الحق سبحانه هنا بالإجابة ؛ ولم يتركْها لتأتى منهم ؟

ونقول : إن مجىء الإجابة من الحق هنا عن الذى خلق السماوات والأرض أقوى ممَّا لو جاءت الإجابة منهم .

والمثل من حياتنا ؛ ولله المَثَل الأعلى ؛ قد تقول لابنك الصغير المُتَشاحن مع أخيه الكبير : مَن الذى جاء لك بالحُلَّة الجديدة ؟ فيرتبك خجلاً ؛ لأنه يعلم أن مَنْ جاء له بالحُلَّة الجديدة هو أخوه الأكبر الذى تشاحن معه ؛ فتقول أنت : جاء لك بها أخوك الأكبر الذى تشاحنتَ معه .

وهنا لحظة أن يقول رسول الله ﷺ لهم ما أمره الله أن يقول :

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (١٦) ﴾ [الرعد]

فسوف يرتبكون ؛ فيؤكد لهم بعد ذلك ما أمره الله أن يقول :

﴿ قُلِ اللَّهُ .. (١٦) ﴾ [الرعد]

ويتتابع أمر الله لرسوله ﷺ ، فيقول له الحق سبحانه :

﴿ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا .. (١٦) ﴾ [الرعد]

وهكذا يكشف لهم الرسول ببلاغ الحق سبحانه مدى جهلهم ؛ وهم مَنْ سبق لهم الاعتراف بأن الله هو خالق السماوات والأرض ؛ ولم يجرؤ واحد منهم على أن ينسب خَلْق السماوات والأرض للأصنام .

وهنا يوضح لهم الرسول ﷺ ما أمر الحقُّ سبحانه بإيضاحه : لقد خلق الله السماوات والأرض أفبعد ذلك تتخذون من

دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ؛ ولا ضراً ؟ بدليل أن الصنم من هؤلاء لا يقدر لهم على شيء .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ (١٦)﴾ [الرعد]

وبطبيعة الحال لا يمكن أن يستوى الأعمى بالمبصر .

وساعةَ ترى « أَمْ » اعلم أنها ضَرْب انتقالى ، وهكذا يستنكر الحق ما فعلوه بالاستفهام عنه ؛ لأنه شيء مُنْكر فعلاً :

﴿ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ..(١٦) ﴾

[الرعد]

أى : لو كان هؤلاء الشركاء قد خلقوا شيئاً مثل خَلْق الله ؛ لَكَان لهم أنْ يعقدوا مقارنة بين خَلْق الله وخَلْق هؤلاء الشركاء ؛ ولكن هؤلاء الشركاء الذين جعلوهم مشاركين لله فى الألوهية لا يَقْدرون على خَلْق شيء ؛ فكيف يختارونهم شركاء لله ؟

ويأتى الأمر من الحق سبحانه :

﴿ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (١٦) ﴾ [الرعد]

وفى آية أخرى يُقدِّم الحق سبحانه تفسيراً لتلك الآية :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ .. (٧٣) ﴾

[الحج]

فهؤلاء الشركاء لم يخلقوا شيئاً ، ولن يستطيع أحدٌ الادعاء بأن هؤلاء الشركاء عندهم نية الخَلْق ، ولكن مجيء « لن » هنا يُؤكد أنهم حتى بتنبيههم لتلك المسألة ؛ فلَسوف يعجزون عنها ؛

لأن نَفْى المستقبل يستدعى التحدِّى ؛ رغم أنهم آلهة متعددة ؛ ولو اجتمعوا فلن يخلقوا شيئاً .

يستمر التحدى فى قوله سبحانه :

﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) ﴾ [الحج]

أى : لو أخذ الذباب بساقه الرفيعة شيئاً مِمَّا يملكون لَمَا استطاعوا أن يستخلصوه منه .

وهكذا يتضح أن الحق سبحانه وحده هو الخالق لكُلِّ شىء ؛ وتلزم عبادته وحده لا شريكَ له ؛ وهو جَلَّ وعَلا المتفرِّد بالربوبية والألوهية ؛ وهو القهار المتكبر ؛ والغالب على أمره أبداً ، فكيف يكون مَنْ دونه مساوياً له ؟ لذلك لا شريك له أبداً .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا(١) رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً(٢)ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ (١٧) ﴾

(١) زبد الماء : ما يعلوه عند جَيَشانه واضطرابه من الرغوة وحطام الأشياء . [القاموس القويم ٢٨٣/١] .

(٢) الجفاء : الزَّبَد . مثل الزبد الذى ترمى به القِدْر عند الغليان . وجفا الوادى غثاءه : رمى بالزبد والقذى . [لسان العرب ـ مادة : جفا] .

وهو سبحانه يُنزل الماء من جهة العُلو وهو السماء ، ونعلم أن الماء يتبخَّر من البحار والأنهار والأرض التى تتفجَّر فيها العيون ليتجمع كسحاب ؛ ثم يتراكم السحاب بعضُه على بعض ؛ ويمرُّ بمنطقة باردة فيتساقط المطر .

يقول الحق سبحانه :

﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا .. (١٧) ﴾ [الرعد]

والوادى هو المُنْخفض بين الجبلين ؛ وساعةَ ينزل المطر على الجبال فهو يسيل على الأودية ؛ وكل وَادٍ يستوعب من المياه على اتساعه .

ولنا أن نلحظ أن حكمة الله شاءتْ ذلك كَيْلا يتحول الماء إلى طوفان ، فلو زاد الماء فى تلك الأودية لَغرقتْ نتيجة ذلك القرى ، ولَخربت الزراعات ، وتهدمتْ البيوت .

والمَثَل على ذلك هو فيضان النيل حين كان يأتى مناسباً فى الكمية لحجم المَجْرى ؛ وكان مثل هذا القَدْر من الفيضان هو الذى يُسعد أهل مصر ؛ أما إذا زاد فهو يُمثِّل خطراً يَدْهَم القرى ويخربها .

وهكذا نجد أن من رحمة الحق سبحانه أن الماء يسيل من السماء مطراً على قَدْر اتساع الأودية ؛ اللهم إلا إذا شاء غير ذلك .

والحق سبحانه هنا يريد أنْ يضرب مثلاً على ما ينفع الناس ؛ لذلك جاء بجزئية نزول الماء على قَدْر اتساع الأودية .

ومَنْ رأى مشهد نزول المطر على هذا القَدْر يمكنه أنْ يلحظ أن نزول السَّيْل إنما يكنس كل القَشِّ والقاذورات ؛ فتصنع تلك الزوائد

رَغْـوةٌ على سطح المـاء الذى يجرى فى النهـر ، ثم يندفع المـاء إلى المَجْرى ؛ ليُزيح تلك الرَّغاوى جانباً ؛ ليسير الماء من بعد ذلك صَافياً رَقْراقاً .

﴿ أنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا[1] .. (١٧) ﴾ [الرعد]

وهذا المَثَل يدركـه أهل البادية ؛ لأنهـا صحراء وجـبال ووديان ؛ فماذا عن مَثَل يناسب أهل الحضر ؟

ويأتى الحق سبحانه بهذا المثل المناسب لهم ؛ فيقول :

﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ .. (١٧) ﴾ [الرعد]

وأنت حـين تذهب إلى مـوقع عمل الحـداد أو صـائغ الذهب والفضة ؛ تجده يُوقد النار ليتحول المعدن إلى سائل مَصْهور ؛ ويطفو فوق هذا السـائل الزَّبَد وهو الأشياء التى دخلت إلى المعـدن ، وليست منه فى الأصل ؛ ويبقى المعدن صافياً من بعد ذلك .

والصَّائغ يضع الذهب فى النار ليُخلِّصه من الشوائب ؛ ثم يضيف إليه من المواد ما يُقوِّى صـلابته ؛ أو ينقله من حالة النقاء إلى درجة أقل نقاءً ، وحـالة النقاء فى الذهب هى ما نطلق عليـه « عيار ٢٤ » ، والأقل درجة هو الذهب من « عيار ٢١ » ، والأقل من ذلك هو الذهب من « عيار ١٨ » .

---

(١) ربا الشيء يربو : زاد ونما . قال تعالى : ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ .. (٣٩) ﴾ [الروم] .

والذهب الخالص النقاء يكون ليِّناً ؛ لذلك يُضيفون إليه ما يزيد من صلابته ، ويصنع الصائغ من هذا الذهب الحُلى .

وهذا هو المَـثَلُ المناسب لأهل الحضـر ؛ حين يصنعـون الحلى ، وهم أيضاً يصنعون أدوات أخـرى يستعملونها ويستعـملها مثلهم أهل البادية كـالسيـوف مثلاً ، وهى لا بُدَّ وأن تكون من الحـديد الصُّلْب ؛ ذلك أن كل أداة تصنع منه لهـا ما يناسـبهـا من الصَّلابـة ؛ فإنْ أراد الحدَّاد أن يصنع سيفاً فلا بد أنْ يخـتار له من الحديد نوعيةً تتناسب مع وظائف السيف .

والزَّبَد فى المـاء النازل من السمـاء إنما يأتى إلـيه نتـيجـة مرور المطر أثناء نزوله على سطح الجبـال ؛ فضلاً عن غسيل مَـجْرى النهر الذى ينزل فيه ؛ وعادة ما يتراكم هذا الزَّبَد على الحَوافّ ؛ ليبقى الماء صافياً من بعد ذلك .

وحين تنظر إلى النيل ـ مثلاً ـ فأنت تجد الشوائب ، وقد ترسبتْ على جانبى النهر وحَـوافّه ، وكذلك حين تنظر إلى مياه البـحر ؛ فأنت تجد ما تلقـيه المركب ، وهو طافٍ فوق الأمواج ؛ لتُلقـيه الأمواج على الشاطىء .

وهكذا ضرب الله المَثَل لأهل البدو ولأهل الحـضر بما يفيدهم فى حياتهم ؛ سـواء حلية يلبسونها ، أو أداة يقـاتلون بها ، أو أداة أخرى يستخـدمونها فى أَوْجُه أعـمالهم الحياتية ؛ وهم فى كـل ذلك يلجئون إلى تصفية المعادن التى يصنعون منها تلك الحلى أو الأدوات الحياتية ليستخلصوا المعادن من الخَبَث أو الزَّبَد .

وكذلك يفعل الحق سبحانه :

﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ .. (١٧) ﴾ [الرعد]

وحين يضرب الله الحقَّ والباطل ؛ فهو يستخلص ما يفيد الناس ؛ ويُذهب ما يضرُّهم ، وقوله :

﴿ فَيَذْهَبُ جُفَاءً .. (١٧) ﴾ [الرعد]

أى : يبعده ؛ فـ « جُفَاء » يعنى « مَطْروداً » ؛ من الجَفْوة ؛ ويُقال : « فلان جَفَا فلاناً » أى : أبعده عنه .

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧) ﴾ [الرعد]

وشاء سبحانه أن يُبيِّن لنا بالأمور الحسِّية ؛ ما يساوى الأمور المعنوية ؛ كى يعلمَ الإنسانُ أن الظُّلْمَ حين يستشرى ويَعْلو ويَطْمس الحق ، فهو إلى زَوَال ؛ مثله مثل الزَّبَد .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ[1] بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ[2] (١٨) ﴾

---

(١) افتدى : قدَّم الفدية عن نفسه ليخلصها من الأسْر . وافتدى الأسير : فداه وأنقذه . قال تعالى : ﴿ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ .. (١٨) ﴾ [الرعد] . [القاموس القويم ٢/٧٤] .

(٢) المهاد : الفراش ، وأصل المهد التوثير . يقال : مهدت لنفسى ومهدت أى جعلت لها مكاناً وطيئاً سهلاً . [لسان العرب ـ مادة : مهد] .

والذين يستجيبون للرب الذى خلق من عَدَم ، وأوجد لهم مُقوِّمات الحياة واستبقاء النوع بالزواج والتكاثر ؛ فإذا دعاهم لشىء فليعلموا أن ما يطلبه منهم مُتمِّم لصالحهم ؛ الذى بدأه بإيجاد كل شىء لهم من البداية .

وهؤلاء الذين يستجيبون لهم الحُسْنى ؛ فسبحانه جعل الدنيا مزرعة للآخرة ، وأنت فى الدنيا مَوْكُول لقدرتك على الأخْذ بالأسباب ؛ ولكنك فى الآخرة مَوْكُول إلى المُسبِّب .

ففى الدنيا أنت تبذُر وتحرُث وتروى وتحصد ، وقد تختلف حياتك شَظفاً[1] وترفاً بقدرتك على الأسباب .

فإذا استجبْتَ لله واتبعتَ منهجه ؛ فأنت تنتقل إلى حياة أخرى ؛ تحيا فيها مع المسبب ؛ لا الأسباب ؛ فإذا خطر ببالك الشىء تَجِدْهُ أمامك ؛ لأنك فى الحياة الأخرى لا يكلك الله إلى الأسباب ، بل أنت مَوْكُول لذات الله ، والموكول إلى الذَّات بَاقٍ ببقاء الذات .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول :

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ .. (١٧٥) ﴾ [النساء]

وبعض المُفسِّرين يقولون « إنها الجنة » وأقول : هذا تفسير مقبول ؛ لأن الجنة من رحمة الله ؛ ولكن الجنة باقية بإبقاء الله لها ؛ ولكن رحمة الله باقية ببقاء الله .

وهنا يقول الحق سبحانه :

---

(١) الشظف : يُبس العيش وشدته وضيقه . [لسان العرب ـ مادة : شظف] .

﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ ..(١٨) ﴾ [الرعد]

ويقول تعالى فى آية أخرى :

﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ .. (٢٦) ﴾ [يونس]

والحسنى هى الأمر الأحسن ؛ وسبحانه خلق لك فى الدنيا الأسباب التى تكدح فيها ؛ ولكنك فى الآخرة تحيا بكل ما تتمنى دون كَدْح ، وهذا هو الحسن .

وهَبْ أن الدنيا ارتقتْ ؛ والذين يسافرون إلى الدول المُتقدمة ؛ وينزلون فى الفنادق الفاخرة ؛ يُقال لهم اضغط على هذا الزر تنزل لك القهوة ؛ والزِّر الآخر ينزل لك الشاى .

وكل شىء يمكن أن تحصل عليه فَوْر أن تطلبه من المطعم حيث يُعدُّه لك آخرون ؛ ولكن مهما ارتقتْ الدنيا فلن تصل إلى أنْ يأتى لك ما يمرُّ على خاطرك فَوْر أنْ تتمناه ؛ وهذا لن يحدث إلا فى الآخرة .

وكلمة « الحسنى » مُؤنَّثة وأفعل تفضيل ؛ ويُقَال « حسنة وحُسْنى » ؛ وفى المذكر يُقَال « حسن وأحسن » . والمقابل لمن لم يستجيبوا معروف .

والحق سبحانه يقول هنا :

﴿ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ..(١٨) ﴾ [الرعد]

أى : يقول خذوا ما أملك كله واعتقونى ، لكن لا يُستجاب له .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ أُولَـٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٨) ﴾

[الرعد]

لأن الحساب يترتب عليه مرة خَيْر ؛ ويترتب عليه مرة أخرى شَرٌّ ؛ وجاء الحق سبحانه بكلمة :

﴿ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٨) ﴾ [الرعد]

هنا ؛ لأن الواحد من هؤلاء والعياذ بالله لن يستطيع أن يتصرف لحظة وَضْعه فى النار ، كما لا يستطيع الطفل الوليد أن يتصرف فى مِهَاده ؛ ومن المؤكد أن النار بِئْس المهاد .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ (١) (١٩) ﴾

والمؤمن هو مَنْ يعلم أن القرآن الحامل للمنهج هو الذى أنزله سبحانه على رسوله ؛ ولا يمكن مقارنته بالكافر وهو الموصوف هنا من الحق سبحانه :

﴿ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ (١٩) ﴾ [الرعد]

وجاء هنا بـ « علم » و « عمى » ؛ لأن الآيات الدالة على القدرة من المرئيات .

ويقول الحق سبحانه :

---

(١) اللبُّ : العقل وجمعه ألباب . [القاموس القويم ٢/١٨٧] ولُبُّ كل شىء : خالصه وخياره . وهو أيضاً : نفسه وحقيقته . [لسان العرب ـ مادة : لبب] .

﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (١٩) ﴾ [الرعد]

أى : أصحاب العقول القادرة على التدبُّر والتفكُّر والتمييز .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك عن أولى الألباب :

﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ (٢٠) ﴾

والواحد من أولى الألباب ساعة آمن بالله ؛ فهو يعلم أنه قد تعاهد مع الله عهداً بألاَّ يعبد غيره ؛ وألاَّ يخضع لغيره ؛ وألاَّ يتقرَّب لغيره ؛ وألاَّ ينظر أو ينتظر من غيره ؛ وهذا هو العهد الأول الإيمانى .

ويتفرَّع من هذا العهد العقدى الأول كُلُّ عهد يُقطع سواء بالنسبة لله ، أو بالنسبة لخَلْق الله ؛ لأن الناشىء من عهد الله مثله مثل عهد الله ؛ فإذا كنتَ قد آمنتَ بالله ؛ فأنت تؤمن بالمنهج الذى أنزله على رسوله ؛ وإذا أوفيتَ بالمنهج ؛ تكون قد أوفيتَ بالعهد الأول .

ولذلك نجد كل التكليفات المهمة البارزة القوية فى حياة المؤمنين نجد الحق سبحانه يأتى بها فى صيغة البناء ؛ فيما يسمى « البناء للمجهول » ؛ مثل قوله :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ .. (١٨٣) ﴾ [البقرة]

وقوله :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ[1] فِي الْقَتْلَى .. (١٧٨) ﴾ [البقرة]

---

(١) القصاص : معاقبة الجانى بمثل جنايته . [القاموس القويم ٢/١٢٠] . والقصاص : القَوَد وهو القتل بالقتل ، أو الجرح بالجرح . وقال الليث : القصاص والتِّقاص : شىء بشىء . [لسان العرب ـ مادة : قصص] .

وقوله :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ.. (٢١٦) ﴾ [البقرة]

وكُلُّ التكليفات تأتى مَسْبوقة بكلمة « كُتب » والذى كتب هو الله ؛ وسبحانه لم يُكلِّف إلا مَنْ آمن به ؛ فساعةَ إعلان إيمانك بالله ؛ هى ساعة تعاقدك مع الله على أن تُنفِّذ ما يُكلِّفك به .

وأنت حُرٌّ فى أنْ تؤمن أو لا تؤمن ؛ لكنك لحظةَ إيمانك بالله تدخل إلى الالتزام بما يُكلِّفك به ، وتكون قد دخلت فى كتابة التعاقد الإيمانى بينك وبين الله .

ولذلك قال الحق سبحانه « كُتب » ولم يَقُلْ : « كتبْتُ » ؛ لأن العهد بينك وبين الله يقتضى أن تدخلَ أنت شريكاً فيه ، وهو سبحانه لم يُكلِّف إلا مَنْ آمن به .

وسبحانه هنا يقول :

﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ[1] الْمِيثَاقَ (٢٠) ﴾ [الرعد]

أى : أن العهد الإيمانى مُوثَّق بما أخذْتَه على نفسك من التزام .

ويواصل سبحانه وَصْفَ هؤلاء بقوله :

﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) ﴾

وأوَّل ما أمر به الله أنْ يُوصَل هو صلَة الرَّحم ؛ أى : أن تَصل ما يربطك بهم نَسَبٌ . والمؤمن الحقُّ إذا سَلْسَلَ الأنساب ؛ فسيدخل

(١) النقض : إفساد ما أبرمت من عقد أو بناء . وفى الصحاح : النقض نقض البناء والحبل والعهد [لسان العرب ـ مادة : نقض] .

كُلُّ المؤمنين فى صلَة الرَّحم ؛ لأن كل المؤمنين رَحم مُتداخل ؛ فإذا كان لك عَشْرة من المؤمنين تَصلهم بحكم الرَّحم ؛ وكل مؤمن يَصل عشرة مثلك ، انظر إلى تداخل الدوائر وانتظامها ؛ ستجد أن كل المؤمنين يدخلون فيها .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول فى الحديث القدسى :

« أنا الرحمن ؛ خلقت الرَّحم ، واشتققتُ لها اسماً من اسمى ؛ فمَنْ وصلها وَصلْته ؛ ومَنْ قطعَها قطعتُه »[1] .

وقد رَويْتُ من قَبْل قصةً عن معاوية رضى الله عنه ؛ فقد جاء حاجبه ليعلن له أن رجلاً بالباب يقول : إنه أخوك يا أمير المؤمنين .

ولا بد أن حاجبَ معاوية كان يعلم أن معاوية بن أبى سفيان لا إخوةَ له ، لكنه لم يَشأْ أنْ يتدخَّل فيما يقوله الرجل ؛ وقال معاوية لحاجبه : ألاَ تعرف إخوتى ؟ فقال الحاجب : هكذا يقول الرجل . فأذنَ معاويةُ للرجل بالدخول ؛ وسأله : أى إخوتى أنت ؟ أجاب الرجلَ : أخوك من آدم . قال معاوية : رَحِم مقطوعة ؛ والله لأكون أوَّلَ من يَصلها .

والتقى الفضيل بن عياض[2] بجماعة لهم عنده حاجة ؛ وقال لهم : من أين أنتم ؟ قالوا : من خُراسان . قال : اتقوا الله ، وكونوا من حيث شئْتم .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١/١٩١ ـ ١٩٤) والترمذى فى سننه (١٩٠٧) وقال : حديث صحيح . وكذا أخرجه أبو داود فى سننه (١٦٩٤) كلهم من حديث عبدالرحمن بن عوف .

(٢) هو : الفضيل بن عياض التميمى ، أبو على ، شيخ الحرم المكى ، من أكابر العُبَّاد والصُلحاء ، ثقة فى الحديث ، ولد بسمرقند (١٠٥ هـ) ، وسكن مكة وتوفى بها (١٨٧هـ) عن ٨٢ عاماً . الأعلام (٥/١٥٣) .

وقد أمرنا سبحانه أن نَصلَ الأهل أولاً ؛ ثم الأقارب ؛ ثم الدوائر الأبعد فالأبعد ؛ ثم الجار ، وكُلُّ ذلك لأنه سبحانه يريد الالتحام بين الخلق ؛ ليستطرق النافع لغير النافع ، والقادر لغير القادر ، فهناك جارك وقريبك الفقير إنْ وصلْتَه وصلَك الله .

ولذلك يأمر الحق سبحانه رسوله ﷺ ومِنْ خلاله يأمر كل مؤمن برسالته :

﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ .. (٢٣)﴾ [الشورى]

وقال بعض مَنْ سمعوا هذه الآية : قُرْباك أنت في قُرْباك[1] . وقال البعض الآخر : لا ، القربى تكون في الرسول ﷺ ؛ لأن القرآن قال في محمد ﷺ :

﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ (٦)﴾ [الأحزاب]

وهكذا تكون قرابة الرسول أَوْلَى لكل مؤمن من قرابته الخاصة .

يستمر قول الحق سبحانه في وصف أُولي الألباب :

﴿ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١)﴾ [الرعد]

والخشية تكون من الذي يمكن أن يُصيبَ بمكروه ؛ ولذلك جعل الحق هنا الخشية منه سبحانه ؛ أي : أنهم يخافون الله مالكهم وخالقهم ومُربِّيهم ؛ خوف إجلال وتعظيم .

---

(١) أخرج الإمام أحمد في مسنده (١/٢٦٨) عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال : « لا أسألكم على ماآتيتكم من البينات والهدى أجراً إلا أن تُوادُّوا الله تعالى وأنْ تقرَّبوا إليه بطاعته » قال ابن كثير في تفسيره (٤/١١٢) : « أي : إلا أن تعملوا بالطاعة التي تقربكم عند الله زلفى».

وجعل سبحانه المخاف من سوء العذاب ؛ وأنت تقول : خِفْتُ زيداً ، وتقول : خِفْتُ المرض ، ففيه شيء تخافه ؛ وشيء يُوقِع عليك ما تخافه .

وأولو الألباب يخافون سُوء حساب الحق سبحانه لهم ؛ فيدفعهم هذا الخوف على أنْ يَصلوا ما أمر به سبحانه أنْ يُوصَل ، وأنْ يبتعدوا عن أى شيء يغضبه .

ونحن نعلم أن سوء الحساب يكون بالمناقشة واستيفاء العبد لكل حقوقه ؛ فسبحانه مُنزَّه عن ظلم أحد ، ولكن مَنْ يُناقش الحسابَ فهو مَنْ يَلْقى العذاب[1] ؛ ونعوذ بالله من ذلك ، فلا أحد بقادر على أن يتحمل عذابَ الحق له .

ويواصل الحق سبحانه وَصْف أُولى الألباب فيقول :

﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) ﴾

ونجد هذه الآية معطوفة على ما سبقها من صفات أولى الألباب الذين يتذكَّرون ويعرفون مَواطن الحق بعقولهم اهتداءً بالدليل ؛ الذين يُوفون بالعهد الإيمانى بمجرد إيمانهم بالله فى كُلِّيات العقيدة

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ حُوسب يوم القيامة عُذِّب . فقال عبدالله بن أبى مليكة : أليس قد قال الله عز وجل : ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) ﴾ [الانشقاق] فقال : ليس ذاك الحساب ، إنما ذاك العرض ، مَنْ نُوقش الحساب يوم القيامة عُذِّب » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٧٦) قال النووى فى شرحه : « معناه أن التقصير غالب فى العباد فمن استقصى عليه ولم يُسامح هلك ودخل النار ولكن الله تعالى يعفو ويغفر ما دون الشرك لمن يشاء » .

الوحدانية ، ومُقْتضيات التشريع الذى تأتى به تلك العقيدة .

ولذلك جعلها سبحانه صفقة أوضحها فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا .. (١١١) ﴾ [التوبة]

وهى صفقة إيجاب وقَبُول ، والعهد إيجاب وقبول ؛ وهو ميثاق مُؤكَّد بالأدلة الفطْرية أولاً ، والأدلة العقلية ثانياً .

وهُمْ فى هذه الآية مَنْ صبروا ابتغاءَ وجه ربهم ، والصبر هو تحمُّل متاعب تطرأ على النفس الإنسانية لتخرجها عن وقار استقامتها ونعيمها وسعادتها ، وكل ما يُخرِج النفس الإنسانية عن صياغة الانسجام فى النفس يحتاج صبراً .

والصبر يحتاج صابراً هو الإنسان المؤمن ، ويحتاج مَصْبوراً عليه ؛ والمَصْبور عليه فى الأحداث قد يكون فى ذات النفس ؛ كأنْ يصبر الإنسان على مشقَّة التكليف الذى يقول « افعل » و « لا تفعل » .

فالتكليف يأمرك بترْك ما تحب ، وأنْ تنفذ بعض ما يصعب عليك ، وأن تمتثل بالابتعَاد عما ينهاك عنه ، وكُلُّ هذا يقتضى مُجَاهدة من النفس ، والصبر الذاتى على مشَاقِّ التكليف .

ولذلك يقول الحق سبحانه عن الصلاة مثلاً :

﴿ وَإِنَّهَا[1] لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) ﴾ [البقرة]

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (١/٨٧) : « الضمير فى قوله : ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ ..(٤٥) ﴾ [البقرة] عائد إلى الصلاة نصَّ عليه مجاهد ، واختاره ابن جرير . ويحتمل أن يكون عائداً على ما يدل عليه الكلام وهو الوصية بذلك » .

وهذا صَبْـر الذَّات على الذَّات . ولكن هناك صَبْر آخر ؛ صـبر منك على شيء يقع من غيرك ؛ ويُخرِجك هذا الشيء عن استقامة نفسك وسعادتها .

وهو ينقسم إلى قـسمين : قسم تجـد فيه غريمـاً لك ؛ وقسم لا تجد فيه غريماً لك .

فالمـرض الذى يُخرِج الإنسـان عن حَيِّز الاسـتقامـة الصِّحـية ويُسـبِّب لك الألم ؛ ليس لك فيـه غريم ؛ لكنك تجـد الغريم حـين يعتدى عليك إنسانٌ بالضرب مـثلاً ؛ ويكون هذا الذى يعتدى عليك هو الغريم لك .

وكل صبـر له طاقة إيمانيـة تحتمله ؛ فـالذى يَقْدر على شىء ليس له فـيه غـريم ؛ يكون صَـبْره مـعقـولاً بعض الشيء ؛ لأنه لا يوجد له غريم يهيج مشاعره .

أما صـبر الإنسـان على ألم أوقعه به مَنْ يـراه أمامه ؛ فـهذا يحتـاج إلى قوة ضَـبْط كبيـرة ؛ كى لا يهيج الإنسـان ويُفكِّر فى الانتقام .

ولذلك تجـد الـحق يفـصل بين الأمـرين ؛ يفــصل بين شىء أصـابك ولا تجد لك غـريماً فـيـه ، وشىء أصابك ولك من مـثلك غريمٌ فيه .

ويقول سبحانه عن الصبر الذى ليس لك غريم فيه :

﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾ [لقمان]

ويقـول عن الصبـر الذى لك فيـه غـريم ، ويحتـاج إلى كَظْم الغيظ ، وضبط الغضب :

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣) ﴾ [الشورى]

وحينما يريد الحق سبحانه منك أن تصبر ؛ فهو لا يطلب ذلك منك وحدك ؛ ولكن يطلب من المقابلين لك جميعاً أنْ يصبروا على إيذائك لهم ؛ فكأنه طلب منك أنْ تصبر على الإيذاء الواقع من الغير عليك ؛ وأنت فَرْد واحد .

وطلب من الغير أيضاً أنْ يصبر على إيذائك ، وهذا هو قمة التأمين الاجتماعي لحياة النفس الإنسانية ، فإذا كان سبحانه قد طلب منك أن تصبر على مَنْ آذاك ؛ فقد طلب من الناس جميعاً أن يصبروا على آذاك لهم .

فإذا بدرتْ منك بادرة من الأغيار ؛ وتخطىء في حق إنسان آخر وتؤلمه ؛ فإن لك رصيداً من صبر الآخرين عليك ؛ لأن الحق سبحانه طلب من المقابل لك أنْ يصبر عليك وأن يعفو .

وإذا كان لك غريم ؛ فالصبر يحتاج منك إلى ثلاث مراحل : أنْ تصبر صبراً أولياً بأن تكظم في نفسك ؛ ولكن الغيظ يبقى ، وإن منعت الحركة النُّزوعية من التعبير عن هذا الغيظ ؛ فلم تضرب ولم تَسُبّ ؛ ويسمى ذلك :

﴿ الْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ .. (١٣٤) ﴾ [آل عمران]

والكَظْم مأخوذ من عملية رَبْط القِرْبة التي نحمل فيها الماء ؛ فإنْ لم نُحْكِم ربطها انسكب منها الماء ؛ ويُقال « كظم القربة » أي : أحكم ربطها .

ثم يأتي الحق سبحانه بالمرحلة الثانية بعد كظم الغيظ فيقول :

﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ .. (١٣٤) ﴾ [آل عمران]

وهنا تظهر المسألة الأرْقى ، وهى إخراج الغيظ من الصدر ؛ ثم التسامى فى مرتبة الصِّديقين ؛ فلا ينظر إلى مَنْ كظم غيظه عنه أولاً ؛ بل يعفو عنه ، ولا ينظر له بعداء ، بل بنظرة إيمانية .

والنظرة الإيمانية هى أن مَنْ آذاك إنما يعتدى على حَقِّ الله فيك ؛ وبذلك جعل الله فى صَفِّك وجانبك ؛ وهكذا تجد أن مَنْ ظلمك وأساء إليك قد جعلك فى معية الله وحمايته ؛ وعليك أن تُحسن له.

والصبر له دوافع ؛ فهناك مَنْ يصبر كى يُقال عنه : إنه يملك الجَلَد والصبر ؛ وليبين أنه فوق الأحداث ؛ وهذا صبر ليس ابتغاء لوجه الله ؛ بل صبر كيلا يَشْمت فيه أعداؤه .

وصبر لأنه قد توصل بعقله أن جزعه لن ينفعه ، ولو كان حصيفاً[1] لَصبر لوجه الله ، لأن الصبر لوجه الله يخفف من قَدَر الله .

ومَنْ يصبر لوجه الله إنما يعلم أن لله حكمة أعلى من الموضوع الذى صبر عليه ؛ ولو خُيِّر بين ما كان يجب أن يقع وبين ما وقع ؛ لاختار الذى وقع .

والذى يصبر لوجه الله إنما ينظر الحكمة فى مَوْرد القضاء الذى وقع عليه ، ويقول : أحمدُكَ ربى على كل قضائك وجميل قَدَرك ؛ حَمْدَ الرضى بحكمك لليقين بحكمتك .

فمَنْ يصبر على الفاقة[2] ؛ ويقول لنفسه : « اصبرى إلى أن

---

(١) الحصيف : جيد الرأى مُحْكم العقل . وإحصاف الأمر : إحكامه . [لسان العرب ـ مادة : حصف] .

(٢) الفاقة : الفقر والحاجة . وافتاق الرجل أى افتقر . [لسان العرب ـ مادة : فوق] .

يفرجها الله » ولا يسأل أحداً ؛ سيجد الفرج قد أتى له من الله .

انظر إلى الشاعر وهو يقول :

إذَا رُمْتَ أنْ تستخرِجَ المالَ مُنْفقاً
عَلى شَهَواتِ النفْسِ فى زَمَنِ العُسْرِ
فَسَلْ نفسكَ الإنفاقَ مِنْ كَنزِ صَبْرِها
عليْكَ وإنذاراً إلى سَاعةِ اليُسْرِ
فَإنْ فعلْتَ كنتَ الغنىَّ وإنْ أبيْتَ
فَكلُّ مُنَوَّع بعدَها وَاسِعُ العُذْرِ

أى : إنْ راودتْك نفسك لتقترض مالاً لتنفقه على شهوات النفس ، ورفضتَ تلك المُرَاودة ، وطلبت من نفسك أنْ تعطيك من كَنْز الصبر الذى تملكه ؛ وإنْ فعلتَ ذلك كنت الغنىَّ ، لأنك قدرتَ على نفسك .

والذى يلتفت إلى الحَدَث وحده يتعب ؛ والذى يلتفت إلى الحدث مقروناً بواقعه من ربه ؛ ويقول : « لا بد أن هناك حكمة من الله وراء ذلك » فهو الذي يصبر ابتغاء وجه الله . ويريد الله أنْ يخُصَّ مَنْ يصبر ابتغاء وجهه بمنزلة عالية ؛ لأنه يعلم أن الله له حكمة فيما يُجريه من أقدار .

ويتابع سبحانه وَصْف أولى الألباب :

﴿ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِراً وَعَلانِيَةً .. (٢٢) ﴾ [الرعد]

وسبق أن قلنا فى الصلاة أقوالاً كثيرة ؛ وأن مَنْ يؤديها على

مطلوبها ؛ فهـو مَنْ يعلم أنها جَلْوة[1] بين العبد وربـه ، ويكون العبد في ضيافة ربه .

وحـين تُعْرَض الصَّنْعـة على صـانعهـا خـمس مرات في اليـوم ؛ فلا بد أنْ تنال الصَّنْعـة رعاية وعناية مَنْ صمَّمـها وخلقهـا ، وكما أن الله غَيْبٌ عنك ؛ فكذلك أسباب شفائك من الكروب يكون غيباً عنك .

وقـد علَّمنا رسول الله ﷺ ذلك « فكان إذا حـزبه[2] أمر قـام إلى الصلاة »[3] .

ومن عظمـة الإيمـان أن الله هو الذي يدعـوك إلى الصـلاة ؛ وهو سـبحـانه لا يمنع عنك القُـرْب في أيِّ وقت تشاء ؛ وأنت الذي تُحـدِّد مـتى تقف بيـن يديه في أي وقت بعـد أن تُلبِّـي دعـوته بالفـروض ؛ لتؤدي ما تحب من النوافل ؛ ولا يُنْهي سبحانه المقابلة معك كما يفعل عظماء الدنيا ؛ بل تُنْهي أنت اللقاء وقتَ أنْ تريد .

ولقـد تأدَّب رسـول الله ﷺ بأدب ربه ؛ وتخلَّق بالخُلق السـامي ؛ فكان إذا وضع أحد يده في يد الرسول ﷺ ؛ فهو لا ينزع يده من يد مَنْ يُسلِّم عليه ؛ إلا أنْ يكون هو النازع[4] .

وقَوْل الحق سبحانه :

﴿ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ .. (٢٢) ﴾ [الرعد]

---

(١) اجتلى الشـيء : نظر إليه . وجلَّى الشيء : كـشفه . فـالجلوة : الانكشاف والظهـور وكأنه ينظر إليه . [لسان العرب ـ مادة : جلا] .

(٢) حزبه أمـر : أصابه . أي نزل به مهمّ أو أصـابه غَم واشتـد عليه . وأمر حـازب وحزيب : شديد . [لسان العرب ـ مادة : حزب] .

(٣) عن حذيفة رضي الله عنه قال : « كان النبي ﷺ إذا حزبه أمـر صلى » أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٨٨/٥) ، وأبو داود في سننه (١٣١٩) .

(٤) عن أنس بن مالك قـال : « إن كانت الأمَة من أهل المدينة لتـأخذ بيد رسـول الله ﷺ ، فما ينزع يده من يدها حـتى تذهب به حيث شـاءت من المدينة ، في حـاجتـها » . أخـرجه ابن ماجة في سننه (١٣٩٨) ، وأحمد في مسنده (٣/ ١٧٤ ، ٢١٦) .

يعنى : أنك لا يجب أن تنظر إلى ما يؤخذ منك ، ولكن انظر إلى أنك إنْ وصلتَ إلى أن تحتاج من الغير سيؤخذ لك ، وهذا هو التأمين الفعال ، ومَنْ يخاف أن يترك عيالاً دون قدرة ، ولو كان هذا الإنسان يحيا فى مجتمع إيمانى ، لوجد قول الحق مُطبَّقاً :

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا[1] (٩) ﴾ [النساء]

وبذلك لا يشعر اليتيم باليُتْم ؛ ولا يخاف أحد على عياله ، ولا يسخط أحد على قَدَر الله فيه . وسبحانه يضع الميزان الاقتصادى حين يطلب منا الإنفاق ، والإنفاق يكون من مال زائد ؛ أو مال بلغ النصاب[2] ، ولذلك فعليك أنْ تتحرك حركة نافعة للحياة ، ويستفيد منها الغير ، كى يكون لك مال تُنفق منه ، وعلى حركتك أن تَسعكَ وتسعَ غيرك .

وهناك مَنْ ينفق ممَّا رزقه الله بأن يأخذ لنفسه ما يكفيها ، وينفق الباقى لوجه الله ؛ لأنه يضمن أن له إلهاً قادراً على أن يرزقه ، والمضمون عند الله أكثر ممَّا فى يده .

وها هو رسول الله ﷺ يسأل أبا بكر فيما ناله من غنائم ويقول له : ماذا صنعتَ بها يا أبا بكر ؟ فيقول أبو بكر الصديق رضى الله

---

(١) السداد : الصواب وموافقة الحق والعدل . قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) ﴾ [الأحزاب] أى : موافقاً للعدل والحق والشرع لا خطأ فيه . [القاموس القويم : ٣٠٧/١] .

(٢) النصاب من المال : القَدْر الذى تجب فيه الزكاة إذا بلَغه . [لسان العرب ـ مادة : نصب] . ويُقدَّر هذا النصاب بما يساوى قيمة ٨٥ جراماً من الذهب بسعر اليوم الذى تُخرج فيه الزكاة ، إذا مَرَّ عليه عام.

عنه وأرضاه : تصدَّقْتُ بها كلها . فيقول الرسول : وماذا أبقيت ؟ يقول أبو بكر : أبقيت الله ورسوله[١] .

وسأل رسول الله عمر بن الخطاب رضى الله عنه : وماذا فعلتَ يا عمر ؟ فيقول ابن الخطاب : تصدقْتُ بنصفها ولله عندى نصفها . وكأنه يقول للرسول : « إن كان هناك مصرف تريدنى أن أصرف فيه النصف الباقى لله عندى ؛ فلسوف أفعل » .

وهكذا رأينا مَنْ يصرف ممَّا رزقه الله ؛ بكل ما رزقه سبحانه ، وهو أبو بكر الصديق ؛ ونجد مَنْ ينفق ممَّا رزقه الله ومستعد لأن ينفق الباقى إنْ رأى رسولُ الله مصرفاً يتطلب الإنفاق .

ونجد من توجيهات الإسلام أن مَنْ يرعى يتيماً ؛ فليستعفف فلا يأخذ شيئاً من مال اليتيم إنْ كان الولىُّ على اليتيم له مال ؛ وإن كان الولى فقيراً فليأكل بالمعروف[٢] .

ولقائل أنْ يسأل : ولماذا نأتى بالفقير لتكون له ولاية على مال اليتيم؟

وأقول : كى لا يحرم المجتمع من خبرة قادرة على الرعاية ؛ فيأتى بالفقير صاحب الخبرة ؛ وليأكل بالمعروف .

---

(١) ذكر القصة الكاندهلوى فى حياة الصحابة (٢/١٣٧) وعزاها لأبى داود والترمذى والدارمى والحاكم أن عمر رضى الله عنه قال : « أمرنا رسول الله ﷺ يوماً أن نتصدق ووافق ذلك مالاً عندى فقلت : اليوم أسبق أبا بكر إنْ سبقته يوماً ، فجئت بنصف مالى فقال ﷺ : ما أبقيت لأهلك ؟ قلت : مثله . وأتى أبو بكر بكل ما عنده . فقال : يا أبا بكر ، ما أبقيت لأهلك ؟ قال : أبقيت لهم الله ورسوله . قلت : لا أسبقه إلى شىء أبداً » .

(٢) يقول تعالى : ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ⑥﴾ [النساء] .

ونلحظ أن الحق سبحانه قال :

﴿ وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا .. ۝ ﴾ [النساء]

ولم يَقُلْ « وارزقوهم منها » أى : خُذوا الرزق من المَطْمور فيما يملكون بالحركة فى هذا المال .

وهكذا نفهم كيف يُنفق الإنسان المؤمن ممَّا رزقه الله ؛ فهناك مَنْ ينفق كل ما عنده ؛ لأنه واثق من رصيده عند ربه ، وهناك مَنْ ينفق البعض مما رزقه الله ؛ وقد تأخذه الأريحية والكرم فيعطى كل مَنْ يسأله ، وقد ينفق كل ما عنده ؛ مثل مَنْ يجلس فى جُرْن القمح ويريد أن يُزكّى يوم الحصاد ؛ فيعطى كل مَنْ يسأله ؛ إلى أن يفرغ ما عنده .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول :

﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ۝١٤١ ﴾

[الأنعام]

وهنا نجد الحق سبحانه يصف هؤلاء المُنْفقين فى سبيله :

﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً .. ۝٢٢ ﴾ [الرعد]

والسر هو الصَّدقة المندوبة ، أما الإنفاق فى العلانية ؛ فهى الصَّدقة الواضحة ؛ لأن الناس قد تراك غنياً أو يُشَاع عنك ذلك ، ولا يرونك وأنت تُخرج الزكاة ، فتنالك ألسنتهم بالسوء ؛ وحين يَرَوْنَكَ وأنت تنفق وتتصدَّق ؛ فهم يعرفون أنك تؤدى حقَّ الله ، وتشجعهم أنت بأن يُنفقوا مما رزقهم الله .

وصدقة السِّر وصدقة العلَن أمرها متروك لتقدير الإنسان ؛ فهناك مَنْ يعطى الصدقة للدولة لتتصرف فيها هى ؛ ويعطى من بعد ذلك للفقراء سراً ؛ وهذا إنفاق فى العلَن وفى السر ؛ وجاء الحق بالسر والعلانية ؛ لأنه لا يريد أنْ يحجب الخير عن أيٍّ أحد بأى سبب .

وقد يقول قائل : إن فلاناً يُخرِج الصدقة رياءً .

وأقول لِمَنْ يتفوَّه بمثل هذا القول : ألَمْ يَسْتفِد الفقير من الصدقة ؟ إنه يستفيد ، ولا أحدَ يدخل فى النوايا .

ويتابع سبحانه :

﴿ وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ .. ㉒ ﴾ [الرعد]

والدَّرْء : هو الدَّفْع بشدة ؛ أى : يدفعون بالحسنة السيئة بشدة . وأول حسنة إيمانية هى أنْ تؤمن بالله ؛ وبذلك تدفع سيئة الشرك ، أو دفعتَ السيئة . أى : دفعتَ الذنب الذى ارتكبته وذلك بالتوبة عنه ؛ لأن التوبة حسنة ، وحين ترى مُنْكراً ، وهو سيئة ، فأنت تدفعه بحسنة النُّصْح .

أو : أن يكون معنى :

﴿ وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ .. ㉒ ﴾ [الرعد]

هو إنْ فعلتَ سيئة فأنت تتبعها بحسنة ، والكمال المطلق لله وحده ولرسوله ؛ لنفترض أن واحداً لديه سيئة مُلِحّة فى ناحية من النواحى ؛ فالحقُّ سبحانه يأمره أن يدفع السيئة بأن يفعل بجانبها حسنة .

يقول سبحانه :

﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ .. (١١٤) ﴾ [هود]

وها هو رسول الله ﷺ يقول لمعاذ[(١)] رضى الله عنه :

« اتق الله أينما تكون ، وأتبع السيئة حسنة تَمْحُها ، وخالق الناس بخلق حسن »[(٢)] .

ولذلك ، فأنت تجد أغلب أعمال الخير فى المجتمع لا تصدر من أىِّ رجل رقيق لا يرتكب السيئات ؛ فلا سيئةَ تطارده كى يفعل الحسنة التى يرجو أنْ تمحو السيئة .

فالسيئة ساعةَ تُلهب ضمير مَن ارتكبها ؛ ولا يستطيع أن يدفعها ؛ لأنه ارتكبها ؛ فهو يقول لنفسه « فَلأبنِ مدرسة » أو « أبنى مسجداً » أو « أقيم مستشفى » أو « أتصدق على الفقراء » .

وهكذا نجد أن أغلب حركات الإحسان قد تكون من أصحاب السيئات ، فلا أحدَ بقادر على أنْ يأخذ شيئاً من وراء الله ؛ فمَنْ يرتكب سيئة لابُدَّ أنْ تُلحَّ عليه بأحاسيس الذَّنْب ؛ لتجده مدفوعاً من بعد ذلك إلى فعل الحسنات ؛ لعلَّ الحسنات تُعوِّض السيئات .

ومن دَرْء الحسنة بالسيئة أيضاً ؛ أنه إذا أساء إليك إنسان فأنت

(١) هو : معاذ بن جبل الأنصارى الإمام المقدم فى علم الحلال والحرام ، كان من أجمل الرجال وشهد المشاهد كلها ، أرسله رسول الله ﷺ إلى أهل اليمن معلماً ومُفقِّهاً ، توفى فى طاعون الشام عام ١٧ هـ وكان عمره ٣٤ عاماً . [الإصابة ١٠٦/٦] .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٢٨/٥ ، ٢٣٦) وأبو نعيم فى حلية الأولياء (٣٧٦/٤) من حديث معاذ بن جبل رضى الله عنه .

تكْظِم غيظك وتعفو ؛ وبذلك فأنت تحسن إليه .

وتجد الحق سبحانه يقول :

﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) ﴾ [فصلت]

وإذا أنت جرَّبْتَها فى حياتك ؛ وأخلصْتَ المودة لمن دخل فى العداوة معك ؛ ستجد أنه يستجيب لتلك المودة ويصبح صديقاً حميماً لك .

ولكن هناك مَنْ يقول : جرَّبْتُ ذلك ولم تنفع تلك المسألة .

وأقول لمن يقول ذلك : لقد ظننتَ أنك قد دفعتَ بالتى هى أحسن ، لكنك فى واقع الحال كنت تتربص بما يحدث منك تجاه مَنْ دخلتَ معه فى عداوة ، ولم تُخلص فى الدفع بالتى هى أحسن ، وأخذت تُجرِّب اختبار قول الله ؛ فذهبتْ منك طاقة الإخلاص فيما تفعل ؛ وظل الآخر العدو على عداوته .

لكنك لو دفعتَ بالتى هى أحسن ستجد أن الآية القرآنية فيها كل الصِّدْق ؛ لأن الله لا يقول قضية قرآنية ثم تأتى ظاهرة كونية تُكذِّب القرآن .

ولذلك يقول الشاعر :

يَا مَنْ تُضايِقه الفِعَالُ مِنَ التى ومِنَ الذى
دفع فِدْيتك بالتى حتَّى نَرى فإذَا الذى

أى : يا مَنْ تضايقه أفعال الذى بينك وبينه عداوة ؛ عليك أن